قصيدة المديح في الشعر العربي القديم

يعدّ المديح واحداً من أهم الأغراض الشعرية في الأدب العربي القديم، وقد حظي بمكانة مركزية في حياة القبيلة وفي بلاطات الملوك والخلفاء. شكّل المديح وسيلة للتواصل الاجتماعي والسياسي، وأداة للتعبير عن القيم العربية مثل الشجاعة، الكرم، الحلم، حماية الجار، والمروءة.

أولا: مفهوم المديح

المديح هو الثناء على شخص أو جماعة بذكر صفاتهم المحمودة. وفي الشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي لم يكن المديح مجرد ثناء مباشر، بل كان نظاماً متكاملاً من الصور الفنية والغايات الاجتماعية والسياسية.

ثانيا: تطور المديح عبر العصور

1- المديح في العصر الجاهلي:

- ارتبط بحياة القبيلة والفخر بمكارم رجالها.
- دافع اقتصادي وسياسي: يكافئ الشاعر مقابل شعره.
- من أبرز شعرائه: النابغة الذبياني، زهير بن أبي سلمى، امرؤ القيس.

صفات الممدوح: الكرم، حماية المستجير، الشجاعة، النجدة، الوفاء.

2- المديح في صدر الإسلام:

- تقلص الغلوّ في المدح بسبب القيم الإسلامية.

– بدأ يظهر مدح الرسول ﷺ وأصحابه، مع التركيز على الفضائل الدينية.

– من أبرز شعرائه: حسّان بن ثابت.

3– المديح في العصر الأموي:

ازدهر لارتباطه بالصراع السياسي بين الأحزاب (أمويون – زبيريّون – معارضة).

– وظيفته: تعزيز شرعية الدولة.

– من شعرائه: الفرزدق، الأخطل، جرير.

4– المديح في العصر العباسي:

– تأثر بالثقافات الجديدة والترف الحضاري.

– بالغ الشعراء في وصف الملوك والخلفاء.

– دخلت عناصر جديدة: وصف القصور، الخمر، مجالس اللهو ضمن بناء القصيدة.

من شعرائه: أبو تمام، البحتري، المتنبي.

ثالثا: الدوافع والأغراض

1– **الدوافع الاجتماعية:**– توثيق الصلة بالقبيلة أو السلطة.

– تثبيت مكانة الشاعر.

2– الدوافع الاقتصادية: – الحصول على الجوائز والهبات (العطايا، الإبل، الذهب).

3– **الدوافع السياسية:**– دعم سلطة أو حزب سياسي.

– التشهير بالخصوم عبر مدح المقابل.

4– الدوافع النفسية: رغبة الشاعر في الاقتراب من السلطة أو إظهار قدرته الفنية.

رابعاً: البناء الفني لقصيدة المديح

1– البناء الجاهلي: (البناء الطللي)

كان يبدأ بـ: الوقوف على الأطلال ثم الغزل أو الرحلة ثم ينتقل إلى المديح، مما يعطي القصيدة وحدة شعورية تقوم على الانتقال من الحزن إلى الفخار.

2– البناء العباسي: (تحرر من الطلل)

– ظهور المديح المباشر دون مقدمات طويلة.– استخدام الاستعارات المركبة والمحسنات البديعية.

خامساً: الخصائص الفنية للمديح

1– الموضوعية: يلتزم الشاعر بالصفات المثالية للممدوح، وإن بالغ أحياناً.

2– كثرة الصور البلاغية:– التشبيه: كأنّ سيفه شعاع الشمس.– الاستعارة: يمطر جوداً.

3– الموسيقى الشعرية: – اعتماد البحور الطويلة والكاملة والبسيطة.

– الإيقاع يلائم عظمة الموقف.

4– الأسلوب الإنشائي: كالنداء والدعاء والتمني.

5– المبالغة: خاصة في العصر العباسي كما هو عند المتنبي.

سادسا: أشهر نماذج المديح

– مديح النابغة للنعمان بن المنذر

من مدح النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر من قصيدته المشهورة التي قالها في الاعتذار ومدح النعمان الأبيات التالية:

فإنَّـــكَ شَـــمسٌ والملـــوكُ كواكـــبٌ إذا طلعـــت لـــم يبـــدُ مـــنهنّ كوكـــبُ
وقـد طفـتُ فـي الآفـاقِ حتـى مَللتُهـا وسـيرتُ أعنـاقَ المطـيّ فـلا تعـبُ
ومـــا ذَكَرْتُـــكَ إلاّ ازْدَهَـــرْتُ مَهابـــةً كمـــا ازدهـــرتْ كَمْـــراءُ لاحَ لهـــا شَـــهْبُ

هذه الأبيات تمثّل قمّة المديح عند النابغة، وفيها يرفع شأن النعمان ويربطه بصفات العظمة والهيبة. والكمراء هي الناقة الشديدة البياض، والشَّهْب جمع أشهب، أي الأبيض اللامع، والمراد الضوء الساطع اللامع.

- مديح جرير للخليفة عبد الملك بن مروان

أقِلِّـــي اللـــوم عـــاذلَ والعتابـــا وقـــولي إن أصـــبتُ لقـــد أصـــابا
فمـــا زال الملـــوك مُـــذ ذاك تُـــدعَى بـــأنعمهم علينـــا والثوابـــا
حتـــى اســـتقام لنـــا عبـــد الملـــي ك فحمـــدا ربَّنـــا حمـــدًا وطابـــا

وهذا من المديح الذي يخدم الهيبة السياسية.

- أبو تمام في فتح عمورية

مما قاله في مدح المعتصم حين فتح عمورية، وهو من أعظم قصائد المديح الحماسي:

تَعْـــدو الرِّمـــاحُ عَلَـــيْهِنَّ مُعْتَصِـــمٌ فِـــي حَفْلَـــةٍ تَخْتَطِـــفُ الأَلْبَـــابَ بِالخُطَـــبِ
بَطَـــلٌ تُكَـــدِّرُهُ الخُطُـــوبُ وَهُـــوَّ هِـــي وَتَهُـــونُ فِـــي جَنْـــبِ العَلِـــيِّ العُقَـــبُ
لَـوْلا العُـلا لَـمْ تَجُـبْ مَسْـعاهُ فِـي طَلَـبٍ وَسَـاعَةُ النَّصْـرِ مَنْسُـوبَةٌ إِلَـى التَّعَـبِ
حَتّـــى تَوَاضَـــعَتِ الأَمْـــلاكُ وارتَفَعَـــتْ هُ العَـــدَاوَاتُ يَومًـــا غَيْـــرَ مُلتَهِـــبِ

- مدح المتنبي لسيف الدولة

مما قاله المتنبي في مح سيف الدولة الحمداني، وهو من المديح البطولي الذي يمزج شخصية الشاعر بالممدوح، ما يلي:

أنـــا الـــذي قـــد ســـمتْ نفســـي فـــي العُـــلا وأرى الســـيفَ فـــي يـــديك يلـــوحُ كالهُـــدى
فـــالعزُّ حيـــث كنـــتَ، والمجـــدُ حيـــث أنـــا نفوسُـــنا فـــي صـــفٍّ واحـــدٍ، لا تفـــرُّ البُنـــى
أمـــــدحكَ، فترتفـــــعُ الأزمـــــانُ فخـــــرًا ويـــــزدادُ نـــــوري إذا عـــــلا نـــــورُكَ سُـــــدى
فيـــك القـــوةُ، وفـــيّ الفكـــرُ والصـــبرُ معًـــا نرتقـــي، ونصـــوغُ الأيـــامَ أبـــدى

في الأبيات يربط الشاعر بين نفسه وبين السيف، يظهر فخره وعلو مكانته، ويضع نفسه على قدم المساواة مع الأمير. ثم يشير إلى وحدة المصير بينهما؛ فالعزّة والمجد متلازمان، كأن الشاعر هو امتداد لمجد الأمير. وحين يمدح الشاعر الأمير يزيد من إشعاع مجده بنفسه، فيتلاقى فخره بفخر الممدوح.

سابعاً: وظائف المديح في المجتمع العربي القديم

من وظائف المديح في المجتمع العربي: – توثيق القيم الأخلاقية. – تسجيل الأحداث التاريخية والبطولات. – دعم السلطات السياسية. – حفظ مكانة الشاعر ورزقه.

تاسعاً: نقد المديح

مما يوجه من نقد للمديح أنه اتُّهم بالمبالغة وطمس الحقيقة، كما أصبح أحياناً وسيلة للتكسّب والارتزاق، لكنه ظل فناً راقياً يحمل قوة لغوية وبلاغية.

خاتمة:

يظل المديح فناً مركزياً في الشعر العربي القديم، يجمع بين الوظيفة الاجتماعية والجمالية، ويعكس تطور المجتمع العربي عبر العصور. من خلاله يمكن فهم بنية السلطة، والقيم الأخلاقية، والمثل العليا التي حكمت حياة العرب.